سفيرة المشرق

شتيفان فيلد * / ترجمة : خليل الشيخ

فجعت الأوساط العلمية في العالمين الإسلامي والغربي بوفاة المستشرقة الألمانية الكبيرة أنا ماري شيمل Annemarie Schimmel عن اثنتين وثمانين سنة، أمضتها في التأليف والدرس والبحث. وقد شكلت شيمل –بحق- ظاهرة استثنائية في حقل الدراسات الإسلامية على مستويي الكم والكيف. فقد كان نشاطها التأليفي إبداعا، وتأليفا، وترجمة، غزيرا ومتنوعا، غطى مجالات متعددة في الحضارة الإسلامية، فضلا عما ظلت كتاباتها تتسم به من روح سمحة، تحرص على تقديم الإسلام إلى القارئ الغربي تقديما يمزج بين الأبعاد العلمية الدقيقة والفهم الوجداني، بعيدا عن أي لون من ألوان التعصب و الأحكام المعدة سلفا.

تقدم «**التسامح**» فيما يلي نبذه موجزة عن حياتها ونتاجها العلمي، أعدها الأستاذ الدكتور شتيفان فيلد، مدير معهد الدراسات الشرقية بجامعة بون بألمانيا.

1- الآخر:

ولدت أنا ماري شيمل في السابع من آذار عام 1922 في Erfurt، وكان والدها يعمل موظفا في البريد. نشأت أنا ماري وترعرعت في حقبة حرجة من تاريخ ألمانيا الحديثة، فقد تزامنت نشأتها مع بداية قدوم الاشتراكية القومية (النازية) إلى الحكم، ولكنها في هذه الأجواء المملوءة بالشعارات العرقية التي كانت تمجد «العرق الآري»، وتعلي من أهمية «أن يكون المرء ألمانيا»؛ بدأت أنا ماري شيمل بتلقي دروس

خاصة في العربية، وأقلعت في اتجاه عالم اللغات السامية. ترى أكانت تعي يومها أي عالم متطرف غادرت؟

وإذا كان أترابها يحلمون آنذاك «بالعرق الألماني» و«الراية الألمانية» وا«لفوهرر الألماني»، فإن شيمل آثرت أن تفر إلى عالم غريب له لغته وكتابته، وله ثقافته ودينه؛ إنه: الإسلام. ولكن أنا ماري لم تهرب خارج التاريخ. فهذه التلميذة الشابة الموهوبة بتعلم اللغات، قدمت امتحان الثانوية على نحو مبكر Fruehabitur لتلتحق بجامعة برلين، وتدرس العلوم الإسلامية بإشراف عالمين هما Richard Hartmann، Heinrich Schaeder. وتاريخ الفن الإسلامي على Ernst Kuehnel، والدراسات التركية على Annemarie Von Gabain.

حصلت شيمل على درجة الدكتوراه، وهي في سن التاسعة عشرة من عمرها. وقد ألقت النازية إضافة إلى الحرب بظلالها؛ إذ كان عليها أن تعمل في المصانع على نحو إجباري، كما توجب عليها وهي في السابعة عشرة من عمرها أن تمضي نصف سنة كخدمة إجبارية. ومنذ هذه الآونة بدأ الإسلام وحضارته يمثلان لشيمل طريق حياة. وقد بدأت تتعلم اللغات بالسرعة التي يقرأ المرء الروايات بها فأتقنت العربية والفارسية والتركية.

بعد أن أنهت شيمل دراستها، توجب على شيمل كالكثير من زملائها أن تعمل بين عامي 1941و 1945 في وزارة الخارجية الألمانية كمساعدة في قسم الترجمة. وقد كانت بعض دوائر الخارجية الألمانية الواقعة في شارع فيلهلم مشغولة بترجمة كتاب «كفاحي» لأدولف هتلر، لتجيء ترجمة متشابهة للآيات القرآنية، وليتم توزيع تلك الترجمة أثناء موسم الحج بغية استخدامها في التحريض ضد الاستعمار الإنجليزي. وقد توجب على شيمل أن تكون جزءا من هذا المشروع الأحمق.

وفي الأول من نيسان عام 1945، أي قبل سقوط الرايخ الثالث بعدة أسابيع قدمت شيمل أطروحتها لما بعد الأستاذية للجامعة Habiliation، مستغلة توقف القصف على المدينة، وكان عنوان تلك الأطروحة: «بنية الطبقة العسكرية في الحقبة المملوكية المتأخرة».

وبعد نهاية الحرب ذهبت إلى زاكسن، وهناك بقيت عدة أشهر عند السلطات العسكرية الأمريكية. وبعد إطلاق سراحها اتجهت إلى جامعة ماربورغ لتستكمل إجراءات أطروحتها المشار إليها، وكان عمرها يوم ذاك ثلاثة وعشرين عاما.

أتقنت شيمل العربية والفارسية والتركية و اللاتينية واليونانية وكانت إضافة إلى إتقانها للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأسبانية تستطيع أن تقرأ أو أن تتحدث بالهولندية والسويدية والدينماركية والتشيكية.

حصلت شيمل مرة أخرى على الدكتوراه في تاريخ الأديان من كلية اللاهوت بجامعة ماربورغ بإشراف فريدريش هايلر Friedrich Heiler، وكانت بعنوان: «دراسات عن مصطلح الحب الصوفي في التصوف الإسلامي المبكر».

وعندما بدأت شيمل في بناء حياتها الأكاديمية واجهتها عراقيل ومصاعب، ويمكن القول: إن ثمة ملامح تصبغ أبعاد تلك الحياة العلمية:

- يجئ اهتمامها بالتدين بمثابة رد على الايديولوجيا النازية. لذا ربطت شيمل اهتماماتها العلمية بالتصوف، وبتحليل العلاقة بين الله والإنسان جوابا على ما تميزت به النازية من قسوة وعنف.

- يبين هذا الاهتمام كذلك سوء ظنها بالمشروع السياسي (لنظام هتلر) الذي يشاركها فيه الكثير من معاصريها، هذا المشروع الذي لم يفسد السياسة وحدها، ولكنه دمر مستوى العملية السياسية على الإطلاق.

- نشوء الرغبة العميقة من الجامعات الألمانية المدمرة يومها في التصالح مع الآخر، ومع الأعداء، سواء أكانوا حقيقيين أم متوهمين، ..

وقد كانت شيمل يومها أصغر بكثير من طلابها، هؤلاء الشباب الذين كانوا يرددون شعارات ترى أن الحق في الحياة لهم وحدهم، وتنادي بالتخلص من الأجانب وطردهم، واحتقارهم وكراهيتهم.

لقد شهدت المرحلة الأولى من حقبة المستشار الألماني أديناور Adenauer تفتح مواهب علمية لمجموعة من النساء في الجامعات الألمانية. وقد كان من الممكن آنذاك أن تمنح المرأة اللقب العلمي دون أن يكون لها الحق في الحصول على الوظيفة.

اتجهت شيمل إلى عالم المخطوطات الشرقية في أنقرة واستانبول، وحصلت على لقب أستاذة خارج الهيئة، ولكن الأستاذية الفعلية لشيمل كانت في كلية الإلهيات (الاسلامية) في جامعة أنقرة.

ففي عام 1954 عينت شيمل أستاذة لتاريخ الأديان. وكانت تدرّس باللغة التركية ظاهرة الأديان وتواريخها باستثناء الإسلام. وقد كان عدد أعضاء هيئة التدريس من النساء في جامعة أنقرة وفي غيرها من الجامعات في الشرق في تلك الآونة أكثر من عدد أعضاء هيئة التدريس من النساء في جامعة بون في التسعينات. وقد دأبت شيمل أن تشير إلى ذلك بوضوح وبخاصة عندما يكثر الحديث عن تهميش المرأة أو اضطهادها في البلدان الإسلامية. وهكذا فإن تحقيق شيمل لأستاذيتها -وهذه إحدى المفارقات- قد تم عن طريق تركي.

لقد كانت شيمل رائدة بذهابها إلى تركيا، وإقامتها هناك مدة خمس سنوات، فقد كان الإستشراق الألماني حتى تلك الآونة فيلولوجي الطابع، ضعيف الصلة بالواقع. فالمستشرق تيودور نولدكه (1836-1930) وهو فيلولوجي متميز في اللغات الشرقية وآدابها لم يتجاوز فيينا في رحلاته تجاه الشرق. ولذا فإن ذهاب شيمل إلى الشرق، واندماجها في ثقافته كان استثناء وليس القاعدة. ففي تركيا لم تتعلم شيمل التركية لتقرأ بها، بل غدت التركية لها كأنها لغة أم.

رجعت شيمل عام 1959 إلى ماربوغ، وهناك بدأت عام 1960 تؤسس مع فريدريش هايلر المؤتمر العالمي لمؤرخي الأديان. وفي عام 1961 حصلت على وظيفة علمية في معهد اللغات الشرقية بجامعة بون. ولكنها لم تستطع الحصول على كرسي الأستاذية، وقد قيل لها: «لو كنت رجلا، لحصلت على ذلك الكرسي».

- إن سوء ظن المؤسسة الاستشراقية الألمانية بالمستشرقين الذين أتقنوا اللغات الشرقية حد التكلم بها كان كبيرا، وقد شاعت مقولة: «إن من يمارس الاستشراق يغدو شرقيا». وفي الستينيات وصف المستشرقون القادرون على الحديث باللغات الشرقية بالببغاوات.

- سوء ظن المؤسسة الاستشراقية بالاهتمام الملتزم بالثقافة الإسلامية، من شعر وتصوف وفنون، بوصفها اهتمامات عاطفية.

ومن الثابت أن أقوالا وتخرصات كهذه ظلت تلاحق شيمل طيلة عمرها.

في سنة 1967 انتقلت شيمل إلى هارفرد وغدت منذ 1970 أستاذة للثقافة الهندية الإسلامية indo- muslim culture. وفي تلك الآونة كتبت دراساتها عن الأبعاد الصوفية للإسلام، إضافة إلى اهتمامها بشخصيات كبرى في عالم التصوف من أمثال: حافظ الشيرازي، وجلال الدين الرومي، والحلاج، ومحمد إقبال من العالم الإسلامي المعاصر.

وقد تبدت أهمية دراسات شيمل في معرفتها اللغوية الدقيقة بالمصادر، وقدرتها على ترجمة نصوص صوفية غامضة، وأخرى شعرية من العربية والفارسية والتركية والأوردو والباتشو والسندي إلى الألمانية، وإلى الإنجليزية بعد ذلك.

وقد اكتسب التصوف والشعر في ضوء تحليلاتها أبعادا جديدة، مثلما أضفت ترجماتها مزيدا من الاهتمام على اللغات الإسلامية عند

الجمهور في أوروبا وأمريكا.

لقد شكل المستشرق والمترجم غير العادي فريدريش روكرت Friedrick Rueckert لشيمل مثلا يحتذى. وبخاصة عندما ترجم روكرت معاني القرآن، وبعض نماذج من الشعر العربي والفارسي إلى الألمانية. وكان شعار روكرت: الشعر العالمي هو تسامح عالمي.

وقد تمكنت شيمل في ترجماتها من تقديم ترجمات متميزة على المستويين الجمالي والمعرفي، دون أن تخون الأصل.

ولم تنقطع صلة شيمل بالفن الإسلامي أيضا؛ فقد ظلت شيمل طيلة عشر سنوات مستشارة لشؤون الخط الإسلامي في متحف نيويورك العالمي.

لقد أثارت محبتها للحقل المعرفي الذي تعمل فيه إعجاب الكثيرين، واتهاماتهم كذلك، وقد كانت شيمل تجيب دائما: «إنني لا أستطيع أن أشتغل بشيء لا أحبه». وقد كتبت كتبا علمية أصيلة عن الخط الإسلامي، واكتشفت عبر عمل آخر لا يقل أصالة «الإسلام في شبه القارة الهندية».

إن تماهي شيمل وتعاطفها الواسع مع الموضوعات التي تختارها للدراسة، قد جعل الكثيرين يعتقدون أنها اعتنقت الإسلام. وهو أمر يعد في نظر المستشرقين الأوروبيين والألمان -على وجه الخصوص- لونا من الخيانة الثقافية الكبرى. ولكن شيمل ظلت مستغرقة في صور التصوف الإسلامي وأنماطه، سعيدة بذلك الاعتقاد، ومغتاظة منه في الوقت نفسه. وما كان يغيظها ليس هو مضمون ذلك الاعتقاد -التهمة، ولكن ما كان ينطوي عليه ذلك من تعييب للآخرين، والانتقاص من كرامتهم، والتقليل من مستواهم العلمي. لذا كان شعارها بيتي شعر من ديوان الشاعر الألماني غوته «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»:

إذا كان الإسلام يعني الخضوع لله

فإننـا نحيـا ونمـوت مسلميـن

وقد وضعت في مقدمة كتابها الشهير «وأن محمدا رسول الله» بيتي شعر باللغة الأوردية يقولان:

قـد لا أكـون مؤمنـة، وقد أكـون

أمـا حقيقتي، فالله وحده هو العالم بهـا

ولكنني أرغب في أن أضع نفسي خادما

للأمير الأعظـم في المدينـة

تذكر هذه الأبيات برباعيات الخيام، ولكن هذه الرباعية هي لشاعر هندوسي معاصر.

إن أنا ماري شيمل لم تعتنق الإسلام؛ لأنها تعلم أن الدخول إلى دين الإسلام أمر ميسور، ولكن الخروج منه أمر مستحيل. ولكن شيمل عاشت حياتها مع المتصوفة وأفكارهم، على نحو يجعل المسلم يتساءل إذا ما كانت شيمل قد أصبحت واحدة منهم. وفي الحق أنها خلقت هذا الانطباع عند كثيرين، وغدا هذا الانطباع قابلا للتصديق.

2- الوساطة:

كانت شروط العمل في هارفارد مريحة؛ لأنه كان على ماري شيمل أن تدرس في فصل الربيع، عبئا مضاعفا، على أن يكون نصف العام المتبقي للبحث والسفر. ولكنها لم تشعر بالاستقرار في هارفرد على الإطلاق. فقد بقيت شقتها في بون إلى حين عودتها مستأجرة.

ولكن أفضل ما في هارفرد، أنها قامت على نحو عالمي بتصحيح الخطأ الذي وقع في جامعة بون، عندما لم تتمكن شيمل من الحصول على الوظيفة العلمية في جامعتها. وقد أنتجت شيمل في هذه الحقبة أكثر من خمسين كتابا ترجمت إلى اللغات الأوروبية وإلى كثير من اللغات

الشرقية، وهو أمر شاهد على خصب تلك الحقبة. مثلما ألقت أكثر من ألف محاضرة، قلَّ من لم تجذبه من الحضور طريقتها الرائعة؛ فهي تذهب بدون أية ملاحظات، تغلق عينيها بقوة، وتمتح من ذاكرة لا تخطئ حتى وهي في السبعينات والثمانينات، وتتحدث بالإنجليزية أو الفرنسية أو التركية أو الفارسية، ومجموعة أخرى من اللغات على نحو تلقائي.

ويجمع نتاجها العلمي بين الكتب البسيطة ذات الأبعاد الثقافية العامة، مثل كتابها «الإسلام» الذي يأخذ طابعا دعائيا، مثلما يجمع بين الأبعاد المتخصصة العميقة كدراساتها عن التصوف الإسلامي، إلى دراستها الأخيرة عن أسماء الأعلام في التركية «السيد ديموسي اسمه شميدت في الواقع»، وهو كتاب يتمنى المرء لو يطلع عليه موظفو الدولة (في ألمانيا) كي يتجنبوا العبث بالأسماء الأجنبية.

إن وساطتها بين الثقافات لا تتجلى في نقل النصوص من ثقافة إلى أخرى؛ ففي أنقرة علمت الطلبة الأتراك تمييز رودلف أوتو في الظاهرة المقدسة بين الجليل والجميل، كما أن دراساتها عن التصوف الإسلامي وأشكاله المتعددة تمتلئ بالإشارات إلى دارسين من أمثال: مايستر إيكارت، وتيريزا فون أفيلا، ويوهانس فون كرويتس.

لقد أعلت أعمال شيمل من أهمية التصوف بوصفه «الحياة الباطنية للإسلام». أما الفقه ومذاهبه ومدارسه فلم ينل إلا يسير من اهتماماتها. فعند شيمل لا تنبع خصوصية الإسلام من الشريعة بكل ما تنطوي عليها من تنوع وتفصيلات، بقدر ما تنبع من البعد الفردي الأصيل للتصوف، الذي ظل يقع في صلب اهتمامها.

لقد ظل المتصوفون المسلمون، والمتصوفات المسلمات -كما وضحت شيمل- حياتهم وأبعادهم الروحية طريقا لاكتشاف الذات. وقد رأت في الكثير من النصوص الأوروبية المتأخرة التي تعلي من قيمة الحرية الفردية للإنسان تقليدا للتصوف الإسلامي.

ولا شك أن موسوعيتها، واحترامها للآخر هو سر من أسرار شهرتها التي طوفت الآفاق؛ فصار اسمها معروفا في العالم الإسلامي من استانبول إلى سمرقند. وقد أفرحها حقا إطلاق اسمها على أحد شوارع مدينة لاهور في باكستان أكثر مما أفرحتها الأوسمة الكثيرة التي نالتها من جميع أرجاء العالم.

وقد أوصت الأستاذة شيمل أن تتلى سورة الفاتحة على قبرها، وقد رتل السورة الكريمة بالعربية يوم دفنها الشيخ أحمد زكي اليماني.

****

***) مدير معهد الدراسات الشرقية، جامعة بون، ألمانيا.**